السنة الخامسة والسبعون بعد المئة

فيها عقدَ الرشيدُ البيعةَ لابنه محمد بن زبيدة، وقدَّمه على المأمون، وكانَ المأمونُ أكبرَ منه بأشهر، ولمحمدٍ يومئذٍ خمسُ سنين، وسببه أنَّ جماعةً من بني العباس مدُّوا أعناقَهم إلى الخلافةِ بعد هارون؛ لأنَّه لم يكن له وليُّ عهد، فجاء عيسى بن جعفر بن المنصور إلى يحيى بن خالد[١]، فقال له: ألا تسعى في البيعةِ لابن أختي؟ فقدْ تطاولت أعناقُ بني هاشم إلى الخلافة، فأشارَ يحيى[٢] على هارون بذلك، فعقدَ العقدَ من بعده لمحمد، وسمَّاه الأمين، وبايعَ له القوَّادُ والجند ببغداد، فقال سلم الخاسر: [من الكامل]

قد وفَّقَ الله الخليفةَ إذْ بَنى ... بيتَ الخلافة بالأغرِّ الأزهرِ
فهو الخليفةُ عن أبيه وجدِّه ... شَهِدا عليه بمنظرٍ وبمخبرِ
قد بايعَ الثقلانِ للمهدي الهدى[٣] ... بمحمدِ بن زبيدةَ ابنةِ جعفرِ

ولما عقدَ الرشيدُ البيعةَ لمحمد أنكرَ ذلك بنو هاشمٍ لصغرِ سنِّه.

وقيل: إنَّ عيسى بن جعفر قال للفضل بن يحيى وقد وليَ خُراسان: أَنشدُكَ الله لما عملت في البيعة لابن أختي، فإنَّه ولدُك، وخلافتُه لك، فوعدَه أن يفعل، وتوجَّه الفضلُ إلى خراسان ففرَّق الأموال في أهلها، وبايعَ لمحمد ولقَّبه الأمين، فقال الشاعر: [من البسيط]

قد وكَّدَ الفضلُ عقداً لا انتقاضَ له ... لمصطفًى من بني العباس مُنتخبِ
ببيعةٍ لوليِّ العهدِ أحكَمَها ... بالنصحِ منهُ وبالإشفاقِ والحدَبِ

وبلغ الرشيدَ أنَّ أهل خراسانَ والمشرق قد بايعوا محمد، فكتبَ إلى الآفاق بالبيعة له، وأخذَها على أهل بغداد وبني هاشم والخواص والعوام[٤].

---

(١) كذا في (خ). وفي تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٠، والمنتظم ٩/ ١٠ : الفضل بن يحيى. بدل: يحيى بن خالد.

(٢) الصواب: الفضل. انظر التعليق السابق.

(٣) كذا، وفي تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٠ : قد بايع الثقلان في مهد الهدى.

(٤) تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.

وكان الرشيد يقول: إني لأتعرف في عبد الله حزمَ المنصور، ونسكَ المهدي، وعزَّةَ نفسِ الهادي، ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابعة فيَّ لنسبتُه، والله إنِّي لأرضى سيرتَه، وأحمدُ طريقتَه، وأستحسن سياستَه، وأرى قوَّته وذهنَه، وآمنُ ضعفَه ووهَنَه، وإنِّي لأقدِّمُ محمَّداً عليه، وأعلمُ أنَّه منقادٌ لهواه، مبذِّرٌ لما حوته يداه، مشاركٌ للنساءِ والإماء في رأيه، ولولا أم جعفر وميل بني هاشم إليه لقَدَّمتُ عبد الله عليه، فقال: [من الطويل]

لقد بانَ وجهُ الرأي لي غيرَ أنَّني ... غُلِبْتُ على الأمر الذي كان أحزَما
فكيفَ يُردُّ الدَّرُّ في الضرعِ بعدما ... توزَّعَ حتى صار نهباً مقسَّمَا
أخافُ التواءَ الأمرِ بعد استوائِه ... وأنْ يُنْقَضَ الحبلُ الذي كان أُبرِمَا[1]

وفيها غزا الصائفة عبدُ الملك بن صالح، فأصابَهم بردٌ شديدٌ سقطَت منه أيديهم وأرجلُهم. وحجَّ بالناس الرشيد.

فصل وفيها توفي

اللَّيثُ بن سعد

ابن عبد الرَّحمن، أبو الحارث الفَهْميُّ المصري، مولى خالد بن ثابت الفهمي، وقيل: مولى قيس. إمامُ أهل مصر وقاضيهم وفقيهُهم وعالمُهم وجوادُهم.

من الطبقة الخامسة من أهل مصر، ولد سنة ثلاثٍ أو أربعٍ وتسعين في خلافة الوليد ابن عبد الملك، وكان ثقةً كثيرَ الحديث صحيحَه، وكان قد اشتغلَ بالفتوى في زمانه بمصر، وكان سريّاً من الرجال نبيلاً سخيّاً، له ضيافة.

وولد بقريةٍ أسفلَ مصر يقال لها: قَرْقَشَنْدَة، وكان يَفْضُلُ على الإخوان سخاءً، وعقلاً، وشجاعةً، وحلماً، وجوداً، وفقهاً، وعلماً بالقرآن والفقه والحديث والشعر وأيَّام العرب[2].

وقال أبو صالح: كنَّا على باب مالك بن أنس، فامتنعَ علينا، فقلنا: ليسَ يشبهُ هذا صاحبنا، فسمعَ مالك كلامنا، فأذن لنا، فدخلنا عليه، فقال: من صاحبكم؟ فقلنا:

(١) المنتظم ٩/ ١٠.
(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٢٤١، والمنتظم ٩/ ١٠-١١.

الليث بن سعد، فقال: تشبهوني برجلٍ كتبنا إليه في قليل عصفر نصبغُ به ثيابنا، فبعثَ إلينا ما نصبغُ به ثيابنا وثياب صبياننا وثياب جيراننا[١]، وبعنا الفضلةَ بألف دينار.

وقال شعيبُ بن الليث: خرجتُ مع أبي حاجّاً، فقدمَ المدينة، فبعثَ إليه مالك بن أنس بطبق فيه رطب، فجعلَ في الطبقِ ألفَ دينار وردَّه إليه.

وكان الليث يستغلُّ كلَّ سنةٍ عشرينَ ألف دينار ـ وقيل: ثمانين ألف دينار ـ وكان يفرِّقُها في العلماء والقُصَّاد، وما وجبَ عليه زكاةٌ قط.

وأعطى ابنَ لهيعة ألف دينار، ومنصورَ بن عمار ألفَ دينار، وجاءت إليه امرأةٌ بسُكُرُّجة، فقالت: يا أبا الحارث، إنَّ لي ابناً عليلاً ويشتهي عسلاً، فقال الليث: يا غلام، أعطِها مرطاً من عسل.

والمرطُ مئةٌ وعشرون رطلاً.

وأقام الليث عشرين سنة لا يتغدَّى ولا يتعشَّى إلَّا مع الناس، يطعمهم الهرايسَ والحلوى.

وولي القضاءَ بمصر ثلاثينَ سنة، لم يستحلَّ أنْ يغرسَ ريحانةً يشمُّها.

وكان يُطعِمُ في كلِّ يوم ثلاثَ مئة مسكين، ويبعثُ إلى مالك بن أنس في كلِّ سنة بخمس مئة دينار[٢].

وقال منصور بن عمار: قدمتُ مصر، فتكلَّمت في جامعها، فإذا رجلانِ قد وَقَفا على الحلقة فقالا: أجب الليث بن سعد، فقمتُ ومضيتُ معهما، فدخلتُ عليه، ولم أكن رأيته، فقال: أنت المتكلِّم في المسجد؟ قلت: نعم، قال: ردَّ عليَّ الكلامَ الذي تكلَّمت به، قال: فأخذت في ذلك المجلسِ بعينه، فرقَّ وبَكى حتَّى رحمتُه، ثم قال: من أنت؟ ومن أين أتيت؟ قلت: من بغداد، وأنا منصور بن عمار. قال: أبو السري؟

---

(١) كذا، وفي تاريخ دمشق ٦٠/ ٩٥ (طبعة مجمع اللغة): نصبغ به ثياب صبياننا، فأنفذ إلينا ما صبغنا به ثياب صبياننا وصبيان جيراننا.

(٢) في تاريخ دمشق ٦٠/ ٩٥ : كان الليث بن سعد يصل مالك بن أنس بمئة دينار في كل سنة، فكتب إليه أن عليَّ ديناً، فبعث إليه بخمس مئة دينار.

قلت: نعم. قال: الحمدُ لله الذي لم يمتني حتَّى رأيتُك، فدفعَ إليَّ ألفَ دينار، وقال: صنْ هذا الكلام أنْ تقف به على أبوابِ السلاطين، ولا تمدحنَّ أحداً من المخلوقين بعد مدحتك لربِّ العالمين، ولكَ عليَّ في كل سنة مثلها، ولا تعلم ابني شعيباً فتهونَ عليه، فقلت: يرحمك الله، إن الله قد أحسن إليَّ وأنعم عليَّ، فقال: لا تردَّ عليَّ شيئاً أصلُك به، ثم قال: لا تبطئ علي، فأتيتُه في الجمعة القابلة، فقال: اذكر شيئاً، فذكرتُ، فبكَى كثيراً، ودفع إليَّ خمس مئة دينار كانت تحت وسادته، فقلت: أريد الحج، فقال: إذا عزمت فعد إلي، فأتيتُه فودعته، وتكلَّمت فبكَى بكاءً كثيراً، وأعطاني ثلاثَ مئة دينار وأربعين ثوباً، وقال: هذه بسبب إحرامِك وأصحابك، ودفعَ إليَّ الجاريةَ التي حملت الثياب، فأخذتُها.

قال أبو نعيم: وأعطاه شعيب بن الليث ألفَ دينار إلا عشرة[1]؛ لئلَّا يساوي أباه في العطية.

وكان الرشيدُ قد حلفَ بطلاقِ زوجته زبيدة أنَّه من أهلِ الجنة، فاستفتَى فقهاءَ العراق فلم يجد عندهم فَرَجاً، فاستقدَم الليث وسألَه بمحضر من الفقهاء. قال: يا أمير المؤمنين أخلني، فأخلاه، فقال: هل نهيتَ نفسك عن هواها قط؟ قال: نعم، فقرأ الليث: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2] [النازعات: ٤٠ ـ ٤١]، فقال هارون: أحسنت، ثم أعطاهُ الأموالَ والتُّحف والخلع، وكان على رأس هارون خادمٌ اسمه لؤلؤ، فقال: وهذا، فأعطاه إيَّاه، وبعثت إليه زبيدة بأضعافِ ذلك.

وقال سعيد الآدم: قال لي الليث بن سعد: اكتب لي أسامي من يلازم المسجد وليس له بضاعةٌ ولا غلة، فأخذتُ القُنْدَاق[3] وكتبتُ فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قلت: فلان بن فلان، وفلان بن فلان، ولم أكتب شيئاً، ثم نمت، فأتاني آتٍ في منامي فقال: ويحكَ يا سعيد، تأتي إلى قومٍ عاملُوا الله سرًّا فتكشفهم لآدميّ؟ مات اللَّيث

(١) في حلية الأولياء ٧/ ٣٢٢: إلا ديناراً.

(٢) في حلية الأولياء ٧/ ٣٢٣ أنه قرأ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن].

(٣) القُنْداق: صحيفة الحساب. لسان العرب (قندق).

وماتَ شعيب، أليس مرجعُهم إلى الذي عاملوه؟ فقمت من منامي وبكيت بكاءً شديداً، فلما طلعَ الصباح دخلتُ على الليث والقنداق في يدي، فلمَّا رآني تهلَّل وجهُه، فناولتُه القنداق، وليس فيه شيءٌ سوى البسملة فقط، فقال لي: ما الخبر؟ فأخبرته، فصاح صيحةً عظيمةً، بحيثُ اجتمع عليه الخلق، ثم غشي عليه، ثم أفاقَ وهو يبكي ويقول: صدق؛ مات الليث، ومات شعيب، أليس مرجعهم إلى الذي عاملوه[1] ؟ وكان سعيدٌ من الأبدال.

ذكر وفاته:

مات في شعبان لأربعَ عشرة خلت منه سنة خمس وسبعين ومئة، وقيل: سنة أربعٍ وسبعين، وبلغ اثنتين وثمانين سنة.

أسند عن خلقٍ من التابعين حتى قيل: إنَّه أدرك نيِّفاً وخمسين من التابعين، وروى عنه جمٌّ غفير، وأثنى عليه الأئمة.

وقال الشافعيُّ رحمه الله: ما فاتني أحدٌ تأسَّفت عليه مثل ما أسفت على الليث بن سعد وابن أبي ذئب.

واتفقوا على صدقِه وأمانتِه وثقته وفضله وزهده وكرمه، حتى قال الإمام أحمد رضي الله عنه: كانَ الليثُ كثيرَ العلم، صحيحَ الرواية، ثبتاً ثقةً. وكان يفضِّله على أقرانه من الأئمة.

واجتمعَ الليثُ بالمنصور في البيت المقدس، فقال: الحمدُ الله الذي جعلَ في رعيَّتي مثلك، ولقد سرَّني ما رأيت من سداد عقلك، وإني أريدُ أن أقلِّدك مصر، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنِّي من الموالي، وأنا ضعيف، قال: فأشر عليَّ لمن أقلدها؟ فقال: لعثمان بن الحكم الجُذَامي، له صلاحٌ وعشيرة، فبلغ ذلك عثمان، فعاهدَ الله أن لا يكلِّم الليث، فلم يكلِّمه حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ٥٣٤، وتاريخ دمشق ٦٠/ ٩٩، وليس فيهما أنه غشي عليه.